الفصل السابع عشر

التفكر والاعتبار

تلك عبادة قلبية عظيمة الأثر، بالغة النفع، فهي غذاء للفهم ونور للبصيرة، وسبيل للسداد والاستقامة، وزاد العقل وزكاته، ومفتاح العلوم والفقه، وبها تكون عظة القلب، وانتباهة الفؤاد، ويقظة الروح، وانشراح النفس، والعجيب أن قاعدة عريضة من المسلمين يجهلون حقيقتها وثمرتها بالرغم من كثرة الآيات والأدلة الآمرة بها والدالة على عظيم نفعها، وجليل شأنها، وبالغ أثرها في الأفئدة والعقول، إنها طريق قريب قويم لإعمار القلوب بالخشية والإنابة، والخشوع والذل والاستكانة. فلله ما أعظم نفعها! دعونا نعيش معها وبها، ونحرك في النفوس معانيها وحقائقها؛ لعلها تسارع إليها وتحيا عليها.

حقيقة التفكر

التفكر لغة: تردد القلب في الشيء يقول ابن منظور: والفكر التأمل وإعمال الخاطر في الشيء وقال الجوهري: التفكر التأمل[1]. **وأما التفكر اصطلاحًا:** فهو التأمل في الشيء لإدراك حقيقة مطلوبة يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم أن التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم بأمر هو حاصل منها هذه هي حقيقته فإنه لو لم يكن ثم مواد تكون موردًا للفكر استحال؛ لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال، فالمتفكر ينتقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغي إيثاره وما ينبغي اجتنابه[2]. ويقول: التذكر والتفكر منزلان يثمران أنواع المعارف وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم قال

(١) «لسان العرب» (٥/ ٦٥).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٣٠) ط. التوفيقية.

الحسن البصري: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت[١] وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: شغل العقل التفكر والنظر في عواقب الأحوال والاستدلال بالشاهد على الغائب[٢].

ثمرات التفكر

للتفكر ثمرات عظيمة يثمرها ويملأ القلب بنفعها ومنها:

١- امتثال لأمر الله جَلَّ جَلَالُهُ:

لقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ عباده بالتفكر وحثهم عليه فقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٨-٩].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾. [سبأ: ٤٦]

٢- المتفكرون هم أولو الألباب:

أهل التفكر والاعتبار هم أصحاب العقول الذكية، والقلوب الواعية والنفوس الزاكية الذين يتفكرون ويتذكرون بما يرون من خلق الله وبديع صنعه وعظيم حكمته ودقيق تدبيره، فتمتلئ قلوبهم بتعظيم الله وتمجيده وعبوديته وتوحيده قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]. وقد ورد عند البخاري ومسلم

---

(١) «تهذيب المدارج» ص [٢٣٧].

(٢) «صيد الخاطر» [٤٣٦] ط. دار الحديث.

من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بت ليلة عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أهله ساعة، ثم رقد فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. ثم قام فتوضأ واستن[١] فصلى إحدى عشرة ركعة ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى الصبح[٢].

٣- الانتفاع بالآيات إنما يكون للمتفكرين:

لقد ضرب الله الأمثال في كتابه حتى يعقلها عباده وأجدر الناس بالانتفاع بهذه الآيات والأمثال والعظات هم أهل التفكر والاعتبار قال الله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤]. وقال تعالى: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١]. وقال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾. [البقرة: ٢١٩]

٤- التفكر يبعث إلى الطاعات ويزجر عن السيئات:

قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]. يقول القرطبي: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: كفار مكة فيشاهدوا هذه القرى فيتعظوا ويحذروا عقاب الله

---

(١) استن أي: تسوك.

(٢) رواه البخاري برقم [٤٥٦٩]، ومسلم برقم [٧٦٣].

أن ينـزل بهم كما نزل بمن قبلهـم ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ أضاف العقل إلى القلب لأنه محله كما أن السمع محله الأذن[١].

قال بشير: لو فكر الناس في عظمة الله ما عصوه.

وقال وهب: ما طالت فكرة أحد قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: التفكر في الخير يدعو إلى العمل به[٢].

أيها الإخوة، من تفكر في ثواب الطاعة وما تثمره من طمأنينة وسعادة وانشراح صدر ونعيم مقيم في الآخرة سارع إليها وحرص عليها، وعمل بها وداوم عليها ومن تفكر في عاقبة المعاصي وما تعقبه من ندامة وحسرات، وكدر وهم وغم انزجر عنها واحترس منها، وبهذا يعلم أن التفكر مفتاح خير عظيم يثمر للعبد كل ما يعود عليه بالنفع في دنياه وأخراه، وإذا صح التفكر أثمر البصيرة النافذة والعلم الراسخ والهداية الراشدة، والاستقامة الرشيدة.

٥- التفكر يورث محبة الله وزيادة الإيمان:

التأمل في النعم والوقوف على إحسان الله للعبد ولطف الله به ورحمته له وفضله عليه يورث العبد المحبة لربه، ويجدد تلك المحبة ويزيدها كل آن كلما تفكر وتأمل، ويزداد بذلك يقينه وإيمانه؛ لأن التفكر يفتح عين القلب وبصيرته على حقائق عظيمة لم يكن من قبل يراها ويعلمها فإذا حصل ذلك العلم زاد الإيمان وانبعثت الجوارح بجد واجتهاد إلى طاعة الله جَلَّ جَلَالُهُ، إن التفكر يسري إلى القلوب فيوقظها، ويثمر حقائق عظيمة تعيها القلوب وتعقلها، وتكشف عن معانٍ نبيلة تحيا بها الأرواح والنفوس وتعيش بها وعليها، التفكر سبيل لمعرفة عظمة الله وجلاله، وضعف الإنسان وفقره وذله للحكيم الخبير

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٦٦) ط. التوفيقية.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧٩) ط. التوفيقية.

جَلَّجَلَالُهُ، وما سلك العابدون إلى ربهم طريقًا أسرع ولا أرحب من التفكر، إنه يعرقل عمل الشهوات في القلب ويدفع أهواء النفوس وقد قيل: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر.

٦- التفكر زاد الدعاة والمصلحين:

حينما تستمر جولات التفكر ووقفات الاعتبار، فإنها تحدث في القلب رقة وإخباتًا لما ينطبع من مشاهد العظمة والقدرة والقهر التي تطرد دواعي الكبر والعجب وتستنبت بذور الذل والتواضع وإن كانت حاجة جميع المؤمنين إلى التفكر ملحة، فإن حاجة الدعاة إليه أكبر؛ لأنه يمد الداعية بزاد روحي يؤهله لاستحقاق مدد من الله وعون وحفظ ونصرة وتأييد، إنه من خلال التفكر يصل إلى مواطن خلل في ذاته فيقوم بإصلاحها ويعدل مساره وفق الدليل الصحيح الصريح.

٧- التفكر يقود إلى توحيد الله:

حين تتفكر في خلقك وخلق ما حولك فإن هذا التفكر يقودك إلى نتيجة حتمية هي أعظم قضية في هذا الوجود وهي توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وأنه لا إله إلا الله قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١٠-١١]. وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

أهمية التفكر عند السلف

كان السلف الصالحون أصحاب قلوب يقظة واعية، وما كانت أوقاتهم تضيع سُدى، بل انشغلت قلوبهم وعقولهم بالتدبر والتأمل والتفكر فازدادت بذلك بصيرة وفهمًا، ونورًا وهداية وعلمًا، ورسخ اليقين والإيمان في قلوبهم وصاروا أئمة في الدين،

وهداة مهتدين، تطيب المجالس بمجرد الحديث عنهم؛ فكيف برؤياهم والجلوس معهم والسماع منهم؟!

لقد كان التفكر يستغرق منهم وقتًا طويلًا ويسيطر على عقولهم وقلوبهم فتنطق حينئذٍ بالحكمة وتفيض بالدمعة، وتمتلئ بالخشية.

قال يوسف بن أسباط: قال لي سفيان بعد العشاء: ناولني المطهرة فناولته فأخذها بيمينه ووضع يساره على خده فبقي مفكرًا فنمت وقمت وقت الفجر فإذا المطهرة في يده كما هي فقلت: هذا الفجر قد طلع فقال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الساعة[١].

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم أن التفكر يدعو إلى الخير والعمل به، والندم على الشر ويدعو إلى تركه[٢].

وقال الحسن البصري كذلك: الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب[٣].

قال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله من أفضل العبادة.

وقال أبو سليمان: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتجلي القلب.

ومن كلام الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة، يقول ابن القيم: وهذا لأن الفكرة عمل القلب والعبادة عمل الجوارح والقلب أشرف

---

(١) «العظمة» لأبي الشيخ (١/ ٣١٨) ط. دار العاصمة.

(٢) «الحلية» لأبي نعيم (٢/ ١٣٤).

(٣) «العظمة» لأبي الشيخ (١/ ٣٠٢).

من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح، وأيضًا فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على ما لا يوقعه عليه العمل المجرد، فإن التفكر يوجب له انكشاف حقائق الأمور وظهورها له وتمييز مراتبها في الخير والشر ومعرفة مفضولها من فاضلها وأقبحها من قبيحها، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها، والتمييز بين ما ينبغي السعي في تحصيله وبين ما ينبغي السعي في دفع أسبابه[(١)].

ولقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعبد في خلوة تامة في غار حراء الليالي ذوات العدد وذلك قبل نزول الوحي، وهذه الخلوة توفر صفاء للقلب والعقل والذهن والخاطر وتساعد على جمعية القلب وعكوفه على الفكر الدقيق العالي، والتدبر والتأمل الصافي وهذه الخلوة وذلك التعبد من أهم سمات العظماء الذين يؤثرون ويكونون أئمة في الخير والهدى روى البخاري ومسلم عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحنث في غار حراء الليالي أولات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء[(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: ولابد للعبد من أوقات ينفرد فيها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه وما يختص به من الأمور التي لا يشكره فيها غيره فهذا يحتاج فيها إلى انفراد بنفسه إما في بيته كما قال طاووس: نعم صومعة الرجل بيته يكف فيها بصره ولسانه، وإما في غير بيته[(٣)].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٨٠).

(٢) رواه البخاري برقم [٣]، ومسلم برقم [١٦٠].

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٤١٠) ط. العبيكان.

أنواع التفكر وأعلاها

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أعلى الفكر وأجلها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة فما كان لله فهو أنواع:

الأول- الفكرة في آياته المنزلة وتعقلها وفهم مراده منها ولذلك أنزلها الله لا لمجرد تلاوتها، بل التلاوة وسيلة قال بعض السلف: أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملًا.

الثاني- الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها على أسمائه وصفاته وحكمته وإحسانه وبره وجوده وقد حض الله عباده على التفكر في آياته وتدبرها وتعقلها وذم الغافل عن ذلك.

الثالث- الفكرة في آلائه وإحسانه وإنعامه على خلقه بأصناف النعم وسعة رحمته ومغفرته وحلمه.

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغ القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة.

الرابع- الفكرة في عيوب النفس وآفاتها، وفي عيوب العمل وهذه الفكرة عظيمة النفع وهي باب لكل خير وتأثيرها في كسر النفس الأمارة بالسوء ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانبعثت وصار الحكم لها، فحيي القلب ودارت كلمته في مملكته وبث أمراءه وجنوده في مصالحه.

الخامس- الفكرة في واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه ،فالعارف ابن وقته فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبدًا، قال الشافعي: صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى

حرفين: أحدهما- قولهم: الوقت سيف، فإن قطعته وإلا قطعك، وذكر الكلمة الأخرى- ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل[1].

مجالات التفكر

للتفكر مجالات تثري القلب بالحكمة، وتملأ النفس تعظيمًا وإجلالًا لله العزيز الحكيم جَلَّجَلَالُهُ، وبالحديث عنها تخشع النفس ويرق القلب ويلين الفؤاد ويزيد الإيمان ويرسخ اليقين وتعظم الثقة بإذن الله جَلَّجَلَالُهُ ومن هذه المجالات ما يلي:

أولًا- التفكر في عظمة الله وتوحيده:

ليس لهذا الكون إلا رب واحد هو الذي يخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويعز ويذل، ويقضي في خلقه بما شاء، ويحكم فيهم بما يريد، ولا راد لقضائه ولا منازع لحكمه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص]. إن الله أحد في ذاته أحد في صفاته أحد في أفعاله ليس كمثله شيء ولا يشبهه شيء، وهو رب كل شيء، لا نظير له ولا ند له ولا كفء له، لا رب غيره ولا إله سواه، إنه لو كان للكون إلهان لفسد كل شيءٍ في هذا الكون، ولحصل الخلل التام الذي يؤدي إلى هلاك هذه الحياة وفنائها قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢-٢٣]. وقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢].

هل هناك أحدٌ خلق الخلق غير الله؟! هل هناك أحد يملك الإحياء والإماتة والنفع والضر والإعزاز والإذلال إلا الله جَلَّجَلَالُهُ؟! هؤلاء الناس من خلقهم؟! من أوجدهم من عدم؟! ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

---

(١) «الداء والدواء» ص [٢١٦-٢١٧] ط. دار ابن رجب.

إنه لا يملك أحد في العالم، بل لا يملك الخلق كلهم ولو اجتمعوا أن يخلقوا ذبابة واحدة، إي والله لا يستطيعون ذلك مهما كانت إمكانياتهم واختراعاتهم إنهم عاجزون تمام العجز عن ذلك وسوف يبقى عجزهم دائمًا، فإذا كان كل الخلق عاجزين عن خلق ذبابة واحدة؛ فكيف بهذا الكون العظيم الذي يحوي من الدقة والجلال ما يبهر المتفكرين فيه؟! كيف بهذا العالم كله بما فيه من مخلوقات وكائنات لا يعلم عددها إلا الذي خلقها جَلَّجَلَالُهُ؟! ألا فلتذعن القلوب بالعبودية لخالق كل شيء، ألا فلتنقذ العقول الواعية أصحابها من دركات الكفر وضلالات الشرك والانحراف؟! إنه الله وحده الذي يخلق ويرزق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤]. الله هو الخالق لكل ما في الوجود، وهو الرزاق لكل مخلوق وموجود، قال الملك العزيز الرحيم الودود: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]. قال الله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]. والخالق وحده هو الذي يستحق أن يعبد، وأن يعظم وأن يمجد، وأن يطاع وأن يوحد، وكل من أعرض عن عبادة الله كان من الهالكين الكافرين الذين عموا وصموا، وخسروا وضلوا، ألا ما أسفه وما أتفه تلك العقول التي عبدت مخلوقًا وضلت عن عبادة خالق السماوات والأرض؟! ما أخس تلك العقول التي ارتضت العبودية لغير الله!! أهذه الآلهة تملك لنفسها نفعًا أو ضرًا؟! هل تملك أن تميت وأن تحيي وأن تسعد وأن تشقى؟! وهل ادعى أحد من هذه الآلهة أنه خلق السماوات والأرض؟! والناس أجمعين؟! يا عباد القبور والأضرحة، ياعباد عيسى وعزير، ياعباد الأحجار والأشجار «**أإله مع الله**»؟! هل أحد منهم يغيث ملهوفًا؟! أو

يسمع دعاء مضطر أو ينجي غريقًا؟! قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

الله هو الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم وهو الغني عن خلقه، وكل خلقه فقراء إليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»(١).

وفي الحديث القدسي قال ربنا عَزَّوَجَلَّ: «**يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**»(٢).

ومن تفكر في عظمة الله اندهش عقله، وخشع قلبه، وتضعضع فؤاده؛ لأن عين البصيرة لو تفكرت لرأت كل الجلال والكمال والجمال في تدبير الملك الحكيم الخبير جَلَّ جَلَالُهُ.

إن هذه السماوات كلها بمن فيها وما فيها من نجوم ومجرات وملائكة لا يعلم عددها إلا الله وسوف يطويها الرحمن كلها يوم القيامة بيمينه ويقبض الأرض كلها بما فيها من جبال ومحيطات وغابات ومخلوقات لا يعلم عددهم إلا ربهم قال رسول الله

---

(١) رواه مسلم برقم [١٧٩]، وابن ماجه برقم [١٩٥].

(٢) رواه مسلم برقم [٢٥٧٧]، والترمذي برقم [٢٤٩٥]، وابن ماجه برقم [٤٢٥٧].

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض»[(١)].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفؤها الجبار بيده»[(٢)].

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ ذات مرة على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائل بيده يحركها يقبل بها ويدبر! يمجد الرب تعالى نفسه: «أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك أنا العزيز أنا الكريم» فرجف المنبر برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قلنا ليخرنَّ به[(٣)] إن عظمة الله ليس لها منتهى، وأفضل شيءٍ يوقفك على عظمة الله أن تتدبر آياته وتفقه معنى كلامه وتعيش مع تلك المعاني متأملًا متفكرًا.

والله لا يعجزه شيء، ولا يفوته هارب، وكل ما شاء كان وكل ما لم يشأ لم يكن، لا منازع لحكمه، ولا مضاد لقضائه وأمره وهذه أعتى قبيلة عرفت في التاريخ كان لديهم أجساد قوية جدًا جعلتهم يتجبرون ويتكبرون ويتفوهون بكلمات فيها الكبر والإعجاب بالنفس والغرور، فجعلهم الله عبرة للمعتبرين وقصة تحكى وتروى كل حين إنهم تجرؤوا واستكبروا وعتوا فأخزاهم الله وأذلهم وعذبهم عذابًا شديدًا وكانوا عبرة لكل من تسوِّل له نفسه أن يتفوه بمثل قيلهم أو يتجرأ بصنيع كصنيعهم قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. فأجابهم القوي العزيز الجبار المتكبر جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. ثم كان العقاب والعذاب الذي أخزاهم وأهلكهم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ

---

(١) رواه البخاري برقم [٦٥١٩].

(٢) رواه البخاري برقم [٦٥٢٠]، ومسلم برقم [٢٧٩٢].

(٣) رواه مسلم برقم [٢١٤٩]، وأحمد (٢/ ٧٢)، وابن أبي عاصم في «السنة» [٤٥٦].

نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت :١٦].

وفي سورة الحاقة قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة:٦-٨]. لما ظنوا أنهم أقوى شيء عذبهم الله بأضعف شيء وهو الهواء ليعلموا وليعلم كل متجبر جبار أن الله أكبر من كل كبير، وأعظم من كل عظيم وأعلى من كل ظالم كفار.

وهذا فرعون الذي نطق بكلمة ما عرفت عن طاغية قبله ولا بعده إنه تجرَّأ بكلمة ترجمت حجم الكفر والكبر الذي في قلبه، وبينت كم في هذه النفس من خبث وغرور قال الله تعالى: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ فكان العقاب الرادع المذل المخزي المهلك المردي: ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [النازعات :٢٣-٢٦]. قال هذا الكفور المغرور لمن استخفهم فأطاعوه ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ [الزخرف :٥١]. فأجرى الله الماء من فوقه وأغرقه وأهلكه وجعله عبرة باقية وعظة رادعة، ولا زال جسده موجودًا حتى هذا الآن منذ أن غرق فعليه اللعنة والمقت والشنآن قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس :٩٠-٩٢].

إن الله بالمرصاد لكل ظالم يملي له، ثم يملي له، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته**» ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود :١٠٢][(١)].

---

(١) رواه البخاري برقم [٤٦٨٦]، ومسلم برقم [٢٥٨٣].

ومن عظمة وجلال الملك جَلَّ جَلَالُهُ اندكاك الجبل لما تجلى له سبحانه وسقوط موسى الكليم مغشيًا عليه من هول ما رأى وجلال ما شاهد، وذلك حينما طلب موسى من ربه أن ينظر إليه فأعلمه الله تعالى بأنه لا يستطيع ولا يقدر أن يرى الله؛ فإن مخلوقًا في هذه الدنيا لا يقوى أبدًا على رؤية الله ولكن رؤية الله في الجنة هي أعظم نعيم لهم فيها ولكي يفقه موسى هذا المعنى بين الله له أن الجبل لا يتحمل أن يتجلى الله له، فلما تجلى الله للجبل ساخ في الأرض من هيبة الله وعظمته سبحانه قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. قال الحافظ ابن كثير: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ ﴾ قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر. ﴿ جَعَلَهُۥ دَكّٗا ﴾ قال: ترابًا. ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا ﴾ قال مغشيًا عليه قال: لأن هذا قرينة تدل على الغشي وهي قوله ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ والإفاقة لا تكون إلا عن غشي ﴿ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ ﴾ تنزيهًا وتعظيمًا وإجلالًا أن يراه أحد في الدنيا إلا مات[(١)].

ثانيًا- التفكر في مخلوقات الله:

وأول المخلوقات وأعظم المخلوقات وأكبرها وأوسعها وأعلاها وأرفعها هو عرش الرحمن وقد وصفه الله تعالى في كتابه بأنه عظيم ومجيد وكريم فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٦]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴾ [البروج: ١٤-١٥]. هذا العرش هو أول المخلوقات كما قال بذلك جمهور العلماء[(٢)].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» باختصار (٣/ ٣٣٩-٣٤٠).

(٢) انظر: «فتح الباري» (٦/ ٢٨٩) ط. الريان.

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧]. يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أخبر تعالى أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام وعرشه حينئذٍ على الماء وهذه واو الحال أي خلقها في هذه الحال فدل على سعة العرش والماء للسماوات والأرض وفي الصحيح عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء**»(١)، وأصح القولين أن العرش مخلوق قبل القلم لما في السنن من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أول ما خلق الله القلم قال: اكتب قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة**»(٢). وقد أخبر أنه قدر المقادير وعرشه على الماء وأخبر في هذا الحديث أنه قدرها في أول أوقات خلق القلم فعلم أن العرش سابق على القلم والقلم سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة(٣)، والعرش هو أثقل المخلوقات قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجويرية: «**لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن، سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته**»(٤).

ومن حول العرش ملائكة يسبحون الله وهناك ملائكة تحمل العرش يسبحون بحمد الله ويستغفرون للمؤمنين قال الله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الزمر: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ

---

(١) رواه مسلم برقم [٢٦٥٣].

(٢) رواه أبو داود برقم [٤٧٠٢]، والترمذي برقم [٢١٥٥]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» [٢٠١٨].

(٣) «مختصر الصواعق المرسلة» ص [٣٥٢] ط. دار الحديث..

(٤) رواه مسلم برقم [٢٧٢٦].

تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٧]. وفي السماوات السبع ملائكة كثيرة جدًا جدًا لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم يسبحون الله ليلًا ونهارًا لا ينقطع تسبيحهم ولا تنقطع عبادتهم لله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]. ويبين لك عظمة هذا العدد الذي لا يحيط به ولا يعلمه إلا خالق السماوات والأرض ما رواه البخاري ومسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في حديث الإسراء: «**ثم رفع بي إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم**»[(١)]، في كل يوم يحج إلى هذا البيت الذي هو في السماء السابعة والذي هو فوق الكعبة الأرضية بحيث لو وقع يقع عليها يحج إليه كل يوم من أيام الدنيا سبعون ألفًا من الملائكة، فانظر كم يكون عدد الداخلين إليه في سنة وفي ألف سنة وفي عمر الدنيا كلها؟! ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١]. وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إني أرى ما لاترون أطت السماء وحُقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله تعالى**»[(٢)].

وتأمل هذا العدد الضخم الكبير في هؤلاء الملائكة الذين يأتون بجهنم يجرونها يوم القيامة كما في صحيح مسلم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[(٣)].

وهذه السماوات في الكرسي كحلقة من حديد ألقيت في صحراء واسعة شاسعة وقد قال الله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وهذا الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسي، كفضل تلك الفلاة على**

---

(١) رواه البخاري برقم [٢٣٠٧]، ومسلم برقم [١٦٢].

(٢) رواه الترمذي برقم [٤٣١٢]، وابن ماجه برقم [٤١٩٠]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» [٢٤٤٩].

(٣) رواه مسلم برقم [٢٨٤٢].

تلك الحلقة»[(١)]. وتأمل هذه السماء كم فيها من نجوم وكواكب ومجرات، وكم بينها من مسافات من الذي يدبر أمرها ويرعى سيرها ومن الذي خلقها وفطرها؟ إنه الله جَلَّجَلَالُهُ وكل هذه النجوم تقع فقط في السماء الدنيا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]. وقد جعل الله هذه النجوم زينة للسماء وعلامات يهتدي بها السائرون في الصحارى والبحار ورجومًا للشياطين تلك التي تحاول استراق السمع قال الله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: ٦-٨]. وقال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

ثم تأمل في هذا السحاب الذي يسير فوقنا كالجبال كيف يسير بقدر معلوم وكيف يتكون وينزل منه الماء الذي به حياة كل شيءٍ ولا تنزل منه قطرة إلا بقدر قدر الله لها، أين تنزل؟ ومتى تنزل؟ ومن ذا الذي سوف ينتفع بها من خلق الله؟ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]. ثم انظر إلى هذا الهواء الذي نحسُّه ولا نراه ولا يمكن أن تستمر بدونه الحياة، ثم إن فيه لواقح للأشجار، وفيه وبه تطير الطيور وتحلق في أفق السماء، ويحمل الطائرات الضخمة وجنديًا ينصر به من عباده من يشاء قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نصرتُ بالصبا وأهلكت عاد بالدبور**»[(٢)]. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في كتاب «العرش» (١/ ٣٠٣)، برقم [٥٨]، وصححه الألباني كما في «الصحيحة» برقم [١٠٩].

(٢) رواه البخاري برقم [٣٢٠٥]، ومسلم برقم [٩٠٠].

ثم تأمل في هذه الطيور التي تحلق في الهواء، بل وفي الطيور التي لا تستطيع الطيران كم هي أنواعها؟ وكم هي أفرادها[1]؟ وكيف تلحق في الهواء وتسافر المسافات البعيدة ثم ترجع إلى أماكنها التي خرجت منها من الذي هداها؟ ومن الذي يدبر أمرها ويرزقها؟ إنه الله القائل جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

ثم تأمل في هذه الأرض كيف مهدها الله عَزَّوَجَلَّ وقدر فيها الأقوات والأرزاق، وكيف أنها لو كانت كلها جبال لصارت الحياة عليها شاقة جدًا وصارت الحركة عليها عسيرة جدًا، وتأمل كيف لم يجعلها الله كلها صحارى ورمالًا أو جزرًا متناثرة في المياه، بل نوَّع الله عَزَّوَجَلَّ أشكال هذه الأرض، وجعل لكل من الخلق ما يناسبه ويلائمه، وتأمل هذه الجبال كم هي وكيف هي؟ وكم فيها من وديان ومغارات وكهوف ومعادن وكنوز لا يحيط بعلم ذلك كله إلا الله عَزَّوَجَلَّ وقد جعلها الله عَزَّوَجَلَّ أوتادًا للأرض ورواسي لها وأودع فيها من المنافع ما لا يحيط بها إلا الله تعالى.

ثم تأمل في هذه الأشجار والنباتات كيف اختلفت أشكالها واختلفت طعومها وألوانها مع أن الأرض التي تنبت فيها واحدة والماء الذي تسقى به واحد فمن ذا الذي نوع بين طعومها وأنواعها؟! إنه الله عَزَّوَجَلَّ تأمل في أرض زرع فيها قصب السكر وإلى جوارها مباشرة أرض نبت فيها الصبار كم بين هذا وهذا من الفروق والطعم؟

---

(١) لقد دعيت ذات يوم عند بعض الإخوة فجاءني بكتاب أدهشني جدًا وقد كان يستعين به على تربية الحمام فرأيت أنواعًا عجيبة وعديدة وغريبة للحمام ولكل نوع اسم وكنت كلما قلبت الصفحات انصدع قلبي لعظمة الخالق الذي خلق فسوَّى، وخلق ما لا نعلم وما لا ندري فسبحانه لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه.

قال الله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾. [الرَّعْد: ٤]

ثم تأمل في حياة مخلوق صغير جدًا كالنمل مثلًا كيف أنه يتكلم ويتخاطب ويناقش وله لغة علمها الله نبيًا من أنبيائه وفهمه إياها إنه سليمان صلوات الله وسلامه عليه، قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النَّمْل: ١٨]. هذا النمل أمة من الأمم تسبح بحمد الله وتسجد له كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة فأمر بجهازه فأخرج وأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح؛ فهلا نملة واحدة»**(١).

هذا النمل إذا خزن قوته من الحبوب عمد إلى ما كان ينبت منه ففلقه فلقتين؛ لئلا ينبت فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقه أربعة فإذا أصابه بلل وخاف عليه العفن والفساد انتظر به يومًا ذا شمس فيخرج به فينشره على أبواب بيوته ثم يعيده مرة ثانية ولا تتغذى نملة على غذاء جمعته نملة أخرى فسبحان من خلق وبرأ!!

وهذا النحل إذا تأملت في حياته وجدت العبر الكثيرة والآيات العظيمة على قدرة الله جَلَّ جَلَالُهُ قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النَّحْل: ٦٨-٦٩]. وقد علَّم الله النحلة النظافة فلا تلقي مخلفاتها إلا خارج الخلية، وفي آخر اليوم إذا أراد النحل دخول الخلية للبيان فيها أوقفوا بوابًا على الخلية ومعه أعوان، فإذا جاءت نحلة تريد الدخول شمَّها، فإذا رأى بها

(١) رواه البخاري برقم [٣٠١٩]، ومسلم برقم [٢٢٤١].

رائحة قذرة طردها حتى تنظف نفسها فإذا وجد نحلة تعلقت أرجلها بالقاذورات أقبل ومن معه عليها فمزقوها إربًا إربًا.

ولقد علم الله النحل النظام مع هذه النظافة فهو يصنع الشمع بهذه الأشكال السداسية الجميلة ولو قمت بقياس أضلاع هذا الشكل السداسي لوجدتها كلها متساوية فمن علَّم النحل ذلك وهداه إليه؟!

وذكر صاحب كتاب «الحيوان» أن الحية في الصحراء إذا جاعت ولم تجد طعامًا نصبت نفسها على هيئة العود القائم فيظنها الغراب خشبة فيقع عليها فتأكله فمن علَّمها ذلك وهداها إليه؟!

وهذا الطائر الذي يسمى بالنورس له طريقة عجيبة في أكل حيوانات البحر التي تعيش داخل المحار الصلب كيف يتغذى بها وهي داخل المحار وكيف يصل إليها؟ إنه يلتقط تلك المحارة في فمه ويرتفع بها عاليًا في الجو، ثم يلقي بها على الصخور فتتحطم المحارة ويلتهم النورس جسم الحيوان الطري من داخل المحارة؛ فمن الذي علمه ذلك وهداه إليه؟! إنه الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن عجيب أمر الفأرة أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلى الإناء فنقص وعز الوصول إليه وصعب ذلك عليها ذهبت وحملت في فمها ماء وصبته في الإناء فينزل الماء إلى أسفل ويرتفع الزيت إلى أعلى! فمن أين عرفت أن الماء ينزل إلى أسفل لكي يرتفع الزيت عليه؟!

ومن الذي علم الأنثى من الفيلة إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي الماء فتلد فيه؛ لأنها لا تلد إلا قائمة وهي عالية فتخاف أن تسقطه على الأرض، فتأتي ماء وسطًا تضعه فيه فيكون كالفراش اللين والوطاء الناعم؟

ومن الذي جعل للفرس قوة يبصر بها الطريق في الظلمة الشديدة؟ ومن الذي جعل للبومة قوة بصر في الليل الأسود الدامس تبصر به الحشرات على العشب؟[1].

تأمل في البحار كم فيها من جزر وكم فيها من أسماك، هذه الأسماك كيف تعيش وكيف تحصل أرزاقها؟ من ذا الذي يدبر لها أمرها؟! إنه الله جَلَّجَلَالُهُ.

انظر وتأمل في الغابات والصحاري كم فيها من حيوانات وزواحف ووحوش وأمم عديدة وأجناس متنوعة، وأشجار كثيفة لا تسقط منها ورقة إلا بعلم الله ولا يعتدي في تلك الغابات حيوان على حيوان إلا بعلم الله وفي يوم القيامة سيقيم الله بينها عدله ثم يقول لها: «كوني ترابًا» فتكون. كل هذا الخلق العجيب لا تغيب منه ذرة عن علم الله وتقديره وتدبيره جل وعلا قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

تأمل في سطور الكائنات فإنها ... من الملأ الأعلى إليك رسائلُ
وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ
تشير بإثبات الصفات لربها ... فصامتها يهدي ومن هو قائلُ

ولله در من قال:

تأمل في رياض الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليكُ
عيون من لجين شاخصات ... بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

(١) انظر تفصيل ذلك في كتابي «وما قدروا الله حق قدره» ط. العالمية وقد قدم له الشيخان الفاضلان الشيخ الحبيب/ محمد حسين يعقوب والشيخ المحدث مصطفى العدوي حفظهما الله وجزاهما الله خيرًا.

وقال ابن المعتز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيا عجبًا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهدُ
وفي كل شيءٍ له آية ... تدل على أنه واحدُ

وقال آخر:

سل الواحة الخضراء والماء جاريا ... وهذي الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانًا سل الزهر والندى ... سل الليل والإصباح والطير شاديا
سل هذه الأنسام والأرض والسما ... سل كل شيءٍ تسمع الحمد لله ساريا
ولو جن هذا الليل وامتد سرمدا ... فمن غير ربي يرجع الصبح ثانيا

وقال آخر:

انظر لتلك الشجرة ... ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة ... وكيف صارت شجرة
فانظر وقل من ذا الذي ... يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذي ... أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة ... وقدرة مقتدرة
وانظر إلى الشمس ... التي جذوتها مستعرة
فيها ضياء وبها ... حرارة منتشرة
من ذا الذي أوجدها ... في الجو مثل الشررة
ذاك هو الله الذي ... أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة ... وقدرة مقتدرة
وانظر إلى الليل فمن ... أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم ... كالدرر المنتشرة

وانظر إلى الغيم فمن ... أنزل منه مطره
وانظر إلى المرء وقل ... من شق فيه بصره
ذاك هو الله الذي ... أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة ... وقدرة مقتدرة

وقال آخر:

والأرض فيها عبرة للمعتبر ... تخبر عن صنع مليك مقتدر
تسقى بماء واحد أشجارها ... وبقعة واحدة قرارها
والشمس والهواء ليس يختلف ... وأكلها مختلف لا يأتلف
لو أن ذا من عمل الطبائع ... أو أنه صنعة غير صانع
لم يختلف وكان شيئًا واحدًا ... هل تشبه الأولاد إلا الوالدا
الشمس والهواء يا معاند ... والماء والتراب شيء واحد
فما الذي أوجب ذا التفاضل ... إلا حكيمًا لم يُرده باطلا

إن كل شيءٍ من حولك ينطق بالتوحيد والتمجيد لله جَلَّجَلَالُهُ، كل ما حولك لو فكرت فيه يدلك على عظمة الله وحكمته وجلاله؛ فاجعل نظرك عبرًا، وصمتك فكرًا، ونطقك ذكرًا، وقد أفلح والله من اعتبر وتفكر وازدجر وتاب إلى ربه من قريب.

ثالثًا- التفكر في النفس:

في نفسك -لو فكرت فيها- آيات عجيبة تدل على عظمة من خلقك وصورك قال الله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]. وقال عز من قائل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. تأمل في نفسك، في سمعك وبصرك وجوارحك، تجد العجب العجاب تأمل في جهازك الهضمي وكيف يحصل الغذاء من خلاله للجوارح والأعضاء وتأمل

جهازك التنفسي والدوري، والسمعي والبصري، والإحساس، والشم وغير ذلك وانظر حجم ما أنت فيه من نعم، وعظمة ما أودع الله في خلقك من أسرار وحكم لا تدريها انظر إلى هذا القلب الذي هو في حجم قبضة اليد إنه ينبض ولم يتوقف عن العمل أبدًا منذ أن نفخت فيك الروح إلى هذا الآن، وسوف يظل كذلك حتى آخر لحظة في حياتك لا يتوقف ولا يحتاج إلى صيانة وإصلاح ولا يشكو من الجهد والإرهاق والتعب هل رأيت آلة في العالم بهذه الكيفية العجيبة وهذه الكفاءة الجبارة العالية؟! من ذا الذي يرعى هذا القلب ويحفظه، من ذا الذي يدبر أمره ويسيره ليدق هذا القلب في الدقيقة الواحدة ما يقارب سبعين مرة وفي السنة ما يقارب من أربعين مليون مرة، فانظر كم يكون قدرها في عمرك كله.

وتأمل حالك حين ولدت ضعيفًا عاجزًا ثم نما جسدك شيئًا فشيئًا حتى صرت قويًا تخاصم وتجادل وتثور وتغضب ثم تعود إلى الضعف مرة أخرى ولابد وذلك حينما ينزل بك الكبر قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤].

وتأمل كيف جعل الله ماء عينك مالحًا ليحفظ العين من الذوبان والآفات، وكيف جعل ماء أذنك مُرًّا ليحفظها من الهوام والبعوض، كيف جعل ماء الفم عذبًا لتدرك به طعوم الأشياء. ودعنا نقف مع عضو واحد فقط نتأمل فيه حتى لا يطول بنا المقام تأمل في حال هذه اليد كيف جعلها الله آلة للعبد يعمل بها وسلاحًا يقاتل به، وترسًا يصد به عن نفسه، بها تقلب الصفحات، وتفتح النوافذ، وتأكل وتشرب وتكتب، وتمسك بها ما تشاء، وتحمل عليها ما تشاء وتعتمد عليها إذا أردت القيام، وتستند عليها إذا أردت القعود، وبها تعرف الخشن من الناعم، والبارد من الساخن، وعليها تسبح، وبها تعمل وتنتج، فانظر لو سلبتها كم تسلب من المنافع والنعم؟ ولقد جعلها الله خمسة أصابع ولم يجعلها طبقًا واحدًا كالصفيحة وهذا يسهل حركتها ويكثر من وظائفها ولو

اجتهد الأولون والآخرون على أن يستنبطوا وضعًا آخر لهذه الأصابع غير ما وضعت عليه لم يجدوا لذلك سبيلًا، تأمل في أطراف هذه الأصابع تجد تلك الخطوط التي تسمى بالبصمات وكيف أنه لا تشتبه بصمة إنسان ببصمة إنسان آخر في العالم برغم أنها خطوط واحدة متشابهة، ومن ذا الذي يقدر على ذلك إلا الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القِيَامَة: ٤]. ثم تأمل في ظهور تلك الأصابع ترى هذه الأظافر وقد جعلها الله تعالى زينة على رؤوس الأصابع وعمادًا ووقاية وليلتقط بها المرء الأشياء الدقيقة التي لا يناله جسم الأصابع، وبها يتمكن من قشط الأذى عن نفسه، ولو عدم الإنسان الأظافر ثم ظهرت به حكة لاشتدت حاجته إليه ولم يقم مقامه شيء في حك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة. وهذا في جارحة اليد وحدها؛ فكيف لو تأملت في بقية البدن والجوارح؟! قال الله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطَّارِق: ٥]. وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يَس: ٧٧].

ثم تأمل في البشر من حولك كيف تختلف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم ولهجاتهم ولم يتشابه اثنان في الخلق مائة بالمائة قط بل لابد من فرق بين كل إنسان وآخر وتأمل في اختلاف أصواتهم وألسنتهم تعلم أنه ما خلقهم إلا حكيم خبير جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الرُّوم: ٢٢]. تأمل في نفسك وهي أقرب شيء إليك يمتلئ قلبك بعظمة الله وتوحيده وتمجيده والعبودية لله جَلَّ جَلَالُهُ.

ولله در من قال:

لله في الآفاق آيات لعل ... أقلها هو ما إليه هداكا
ولعل ما في النفس من آياته ... عجب عجاب لو ترى عيناكا
والكون مشحون بأسرار ... إذا حاولت تفسيرًا لها أعياكا

قل للطبيب تخطفته يد الردى ... ياشافي الأمراض من أرداكا؟
قل للمريض نجا وعوفي بعد ما ... عجزت فنون الطب من عافاكا؟
قل للصحيح يموت لا من علة ... من بالمنايا يا صحيح دهاكا؟
قل للجنين يعيش معزولاً بلا ... راع ومرعى من الذي يرعاكا؟
وإذ ترى الثعبان ينفث سمه ... فسأله من ذا بالسموم حشاكا؟
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو ... تحيا وهذا السم يملأ فاكا؟
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت ... شهدًا وقل للشهد من حلاكا؟
بل سائل اللبن المصفى كان بين ... دم وفرث ما الذي صفاكا؟
قل للهواء تحسه الأيدي ويخفى ... عن عيون الناس من أخفاكا؟
وإذا رأيت البدر يسري ناشرًا ... أنواره فاسأله من أسراكا؟
واسأل شعاع الشمس يدنو وهي ... أبعد كل شيءٍ ما الذي أدناك؟
قل للمرير من الثمار من الذي ... بالمرِّ من دون الثمار غذاكا؟
وإذا رأيت النار شب لهيبها ... فاسأل لهيب النار من أوراكا؟
وإذا ترى الجبل الأشم مناطحًا ... قمم السحاب فاسأله من أرساكا
وإذا ترى صخرًا تفجر بالمياه ... فسله من بالماء شق صفاكا؟
وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال ... جرى فسله من الذي أجراكا؟
وإذا رأيت البحر بالملح الأجاج ... طغى فسله من الذي أطغاكا؟
وإذا رأيت الليل يغشى داجيًا ... فاسأله من ياليل حاك دجاكا؟
وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحيًا ... فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكا؟
هذي عجائب طالما أخذت بها ... عيناك وانفتحت بها أذناكا
ومن الذي تعصي ويغفر دائمًا ... ومن الذي تنسى ولا ينساكا؟
يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي ... بالله أغراكا؟
يامدرك الأبصار والأبصار لا ... تدرى له ولكنهه إدراكا

إن لم تكن عيني تراك فإنني ... في كل شيءٍ أستبين علاكا
يا منبت الأزهار عاطرة الشذا ... هذا الشذا الفواح نفح شذاكا
فاقبل دعائي واستجب لرجاوتي ... ما خاف يومًا من دعا ورجاكا

رابعًا- التفكر في المعاصي وآثارها والطاعات وثمراتها:

المؤمن العاقل اللبيب لا يمر عليه موقف من غير عبرة، ولا يحدث في الحياة أمام ناظريه شيء إلا كانت له فيه عظة، ومن قلب عينيه في حال العصاة ومآل ما هم فيه رأى ثمرات مرة، وعواقب أليمة وحسرات تقطع القلوب في الدنيا قبل الآخرة، ماذا جنى هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي سوى الغم والهم والكدر وضياع الأعمار فيما لا ينفع ولا يفيد، وتأمل ترى في وجوههم سوادًا وفي قلوبهم ظلمة، وفي نفوسهم قلق وحيرة وهذا وغيره جزاء عاجل لمن أعرض عن ذكر الله، واتبع هواه وإذا أرسلت فكرك في الأمم السالفة رأيت هلاكًا لقوم نوح بالطوفان الذي طهر الأرض من رجسهم وكفرهم، ودمدمة على قوم عاد بالريح حتى هلكوا عن آخرهم، وعذابًا على قوم ثمود بالصيحة التي فرقت قلوبهم في أجوافهم وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وترى عذابًا مزلزلًا وحجارة من سجيل تدمر قوم لوط، وترى غرقًا لفرعون وجنوده وخسفًا لقارون ومسخًا لأصحاب السبت وغير ذلك من العقوبات التي حلت بالعصاة ونزلت بمن أعرضوا عن طاعة الله جَلَّجَلَالُهُ، ولا زالت هذه العقوبات بالمرصاد لكل ظالم فاجر، ولكل معاند لأمر الله تعالى وإليكم صورًا مختصرة تجلي شيئًا من هذا المعنى وتترجم طرفًا من تلك الحقيقة.

هذا محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان له يد في سجن العلماء وتعذيبهم وعلى رأسهم أحمد بن حنبل يقول الذهبي في ترجمة هذا المذكور: كان يقول بخلق القرآن ويقول

مـا رحمـت أحدًا قـط، الرحمة خور في الطبع، فسـجن بعـد ذلك في قفص حـرج [ضيق] جهاته مسامير كالمسال فكان يصيح: ارحموني فيقولون: الرحمة خور في الطبع[١].

وهذا يوسـف بـن عمر يقول صالـح بن طريف: لما قدم يوسـف بن عمـر العراق بكيـت وقلت: هذا الذي ضرب وهب بن منبه حتى قتله. قال الذهبي: يعني لما ولي إمرة اليمـن ثـم نقله الخليفة هشـام إلى إمرة العـراق وكان جبارًا عنيدًا مهيبًـا، ثم إنه عزل عن العراق عند مقتل الوليد الفاسق ثم ضربت عنقه ولله الحمد[٢].

وقـال الذهبي في ترجمـة «المنتصر بالله» الخليفة العباسي: ورد عنه أنه قال في مرضه: ذهبـت يا أماه مني الدنيا والآخـرة وعاجلت أبي فعوجلت وكان يتهم بأنه واطأ على قتل أبيـه فما أمهل وجلس مرة للهو فرأى في بعض البسـط دائرة فيها فارس عليه تاج وحوله كتابة فارسـية فطلب من يقرأ فأحضر رجل فنظر فإذا فيها..... فقطب وسـكت وقال لا معنى له فألح المنتصر عليه فقال فيها: أنا شيرويه بن كسرى بن هرمز قتلت أبي، فلم أمتع بالملك سوى ستة أشهر قال: فتغير وجه المنتصر وقام.

قال جعفر بن عبد الواحد: قال لي المنتصر: يا جعفر لقد عوجلت فما أذني بأذني ولا أبصر بعيني.

يقول الذهبي: تحيلوا [يعني الأتراك] إلى أن دسوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينـار عند مرضه فأشـار بفصده، ثم فصده بريشـة مسـمومة فمات منهـا. ويقال: إن ابن طيفور نسي ومرض وافتصد بتلك الريشة فهلك[٣].

---

(١) «السير» للذهبي (١١/ ١٧٣).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٥٥٦).

(٣) المصدر السابق (١٢/ ٤٣).

وهـا هي قرية من القـرى قبل وقت من الزمن نقص عددهـم نتيجة الحروب التي كانـت تقام بين القبائل لأتفه الأسـباب فما كان منهم إلا أن فكـروا في أن يزيدوا عددهم فاجتمعوا وعقدوا مؤتمرًا لهم، وكان قائدهم في ذاك المؤتمر إبليس عليه غضب الله ونعوذ بـالله منـه، فاتفقوا عـلى أن يرجع كل واحـد من أهل هـذه القرية فيقع عـلى محارمه، يقع عـلى أخته وابنته ليكثر العدد والحادثة معروفة مشـهورة والقرية معروفة مشـهورة وهي عـبرة وعظـة لكل من يعتـبر، فما كان منهم إلا أن رجعوا مـن اجتماعهم فمنهم من رجع إلى أهلـه فنفذ مـا اجتمعوا عليه ومنهم من رضي بذلك ولم يفعـل والراضي كالفاعل، ما كانـت النتيجة؟ مـاذا كان منهم؟ أرسـل الله عليهم جنديًا من جنـوده: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. يخـرج عليهم نمل تقوم النملـة فتلدغ الواحد منهم فيذبل ثم يذبل ثـم يمـوت وهكذا واحدًا وراء الآخر فما كان مـن أحدهم إلا أن أراد أن يفلت سرق من أموالهـم مـا سرق جمع مـن الذهب والفضـة ما جمع ثم أخـذه في وعاء، ثـم حفر له تحت صخـرة مـن الصخرات، وعلمه بهذه الصخرة وذهب هاربًـا إلى مكة وبقي في مكة زمانًا قيـل: إنها عشرون سـنة أو أكثر مـن ذلك وما كان منه إلا أن أرسـل واحدًا من أهل مكة وما اسـتطاع هو بنفسـه أن يرجع إلى هناك وقال: اذهب إلى ذلك المكان وستجد في مكان كذا تحت الصخرة وعاء فاسـتخرجه وائتني به. وذهب الرجل واستخرج الكنز وجاء به إليـه ولم يفتحـه ولم ينظـر ما فيه، وجاء صاحبـه ليفتحه فإذا بنملة على ظهـره وإذ بها تقفز عـلى أنفـه فتلدغه فجعل يذبل ثم يذبل ثم مـات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وهـا هـو المعتمد بن عبـاد حاكم بعض ولايـات الأندلس ذلكم الشـجاع المترف، اسـتعان به حاكم ولاية مجاورة عدا عليها أحد أعدائه فأسرع المعتمد لنجدة ذلك الرجل ورجـع الغازي المعتـدي مدحورًا لما رأى جيوش المعتمد. هنا انتهـت مهمة المعتمد لكنه في ظلام الليل يقوم ليبث جيوشـه في المدينة وحول قصر من اسـتنجد به ويقوم باحتلال

المدينة ويا له من ظلم ويا لها من خيانة! أصيب حاكم الولاية بصدمة عنيفة شل منها، وقبض عليه وعلى والده وأخذت أمواله وأودع السجن وسبيت زوجاته وبناته ثم أخرج من ولايته مهانًا ذليلًا فيقول له أبوه: والله إن هذا بسبب دعوة مظلوم ظلمناه بالأمس ثم يرفع يديه إلى الله قائلًا: اللهم كما انتقمت للمظلومين منا فانتقم لنا من الظالمين.

ويظل المعتمد في ملكه فترة ينام والمظلوم يدعو عليه وعين الله لم تنم وتجتاحه دولة المرابطين في ليلة من الليالي وتأسره، ويقضي حياته في أغمات في بلاد المغرب أسيرًا حسيرًا كسيرًا وأصبح بناته المترفات اللاتي كن يخلط لهن التراب بالمسك ليمشين عليه أصبحن حسيرات يغزلن للناس الصوف ما عندهن ما يسترن به سوآتهن ويأتين أباهن يوم العيد في السجن يزرنه فيتأوه ويبكي وينشد وكان شاعرًا فيقول:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورًا ... فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكًا وكافورا

من بات بعدك في ملك يُسرُّ به ... فكأنما بات بالأحلام مغرورا

أيها الإخوة، إنها سنة جارية، وقاعدة في خلق الله سارية، وحقيقة لا تتبدل ولا تتغير أن كل من عصى الله يجد عاقبة ذلك في الدنيا والآخرة، ولن يجني عاص أبدًا من وراء معصيته إلا الحسرات والغموم والندم وإذا أردت أن تشاهد ذلك بعينك فما عليك إلا أن تتأمل في أحوال العصاة من حولك ودعك من تلك الظواهر التي يخدعون بها الناس، بل تأمل في حياتهم وأحوال قلوبهم وبيوتهم ترى آلامًا مفزعة، وكربات شديدة، وإنما يكون ضحكهم ورحلاتهم في الغالب هروبًا مما هم فيه، ولقد مررت أكثر من مرة بقرب الجامعة فوجدت شبابًا ألقى الواحد منهم بنفسه في ماء النيل أو شنق نفسه بحبل

تحت كوبري. وحينما تسأل عنهم تجدهم ممن غرقوا في الشهوات وكانت تلك هي النهاية الأليمة اللهم اهد عصاة المسلمين وخذ بأيدينا ونواصينا جميعًا إلى ما يرضيك عنا.

أما الطاعات فإنها سبيل الأمان والاطمئنان في هذه الحياة، الطاعة هي الوسيلة الكبرى لاستجلاب سعادة الدارين، وإذا تأملت في أحوال الطائعين تجد نضارة في الوجوه ورقة وخشوعًا في القلوب، وحرصًا على نفع الناس وهدايتهم، وتأمل وجوه المصلين بعد انتهائهم من الصلاة تجد نورًا وإشراقًا، تأمل قلبك حينما تتصدق بشيء أو تدعو إلى خير وتنهى عن شر هذا وعد الله لمن اتقاه أن يسعد في دنياه وأخراه قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]. الطاعة هي طريق المصطفين من خلق الله فمن أحبه الله هداه إلى طاعته وأخذ بناصيته إلى رضاه، والطائع ينضم لهذا الموكب الكريم الذي يحوي الطهر والعزة بالله كيف لا وعلى رأس ذلكم الموكب أنبياء الله ورسله، والعلماء الربانيون والدعاة المصلحون، فانزل بواديهم فقد صوَّت بك حاديهم، سر على دربهم تنسب إليهم، وجاهد نفسك حتى تألف الطاعة وتستلذ بالطاعة ولا ترضى بها بدلًا ولا تبغي عنها حولًا، فهيا سارع ولا تتأخر، بادر إلى الله قبل أن يحال بينك وبين التوبة، اقتنص الفرصة الآن فلست تدري ما يكون حال قلبك غدًا.

خامسًا- التفكر في حقيقة الموت والحياة:

هذه الحياة كلها مخلوقة وكذلك الموت مخلوق، وقد قدر الله هذا الموت المخلوق على كل مخلوق، فكل نفس ذائقة الموت، ولن يخلد أحد في هذه الدنيا قط، فالموت حتم لازم لكل حي. هل رأيت أحدًا من الناس سلم من الموت؟! هل أخر أحد في عصرك الآن إلى ألف سنة؟!

ولو أن الدنيا تدوم لأهلها ... لكان رسول الله حيًا وباقيا

ولكنها تفنى ويفنى نعيمها ... وتبقى الذنوب والمعاصي كما هيا

العاقلون يعلمون أنهم يعيشون في اختبار وامتحان مدته حياتهم ونهايته موتهم والفوز فيه يكون بالجنة، والخسارة فيه تكون بدخول جهنم عياذًا بالله، وهذه الأحداث التي نراها كل يوم من تشييع الجنائز فيها مدكر ومعتبر لمن تفكر واعتبر، هذه الحياة لا تصفو لأحدٍ أبدًا فهي مقرونة بالنغص مشوبة بالألم وليس في الناس أحد إلا نزل به بلاء وكم من صحيح أمسى مريضًا، وكم من عزيز صار ذليلًا، وكم من فقير صار غنيًا وكم من غني صار فقيرًا، وكم من ظالم سلب منه ما كان يملكه، وكم من رجل بنى دارًا لم يسكنها، وكم من إنسان ادخر مالًا لم ينتفع به بل انتفع به الورثة من بعده فاستمتعوا هم به وحوسب هو عليه، فيأأيها الغافل، تفكر في حالك وخذ أهبتك واستعد للقاء الله فقد دنا أجلك وأنت مسئول عن كل ما جمعت، وكل ما عملت، فهل أعددت للسؤال جوابًا؟!

تفكر قبل أن تندم ... وإنك ميت فاعلم
ولا تغتر بالدنيا ... فإن صحيحها يسقم
وإن جديدها يبلى ... وإن شبابها يهرم

فيا عبد الله، إنما أنت أيام كلما مضى منك يوم قربك من لقاء الله، كلما مضى يوم نقص عمرك واقترب موتك ومع كل نفس قد تفاجأ بلقاء الله وخروج روحك إليه هل عندك في هذا شك؟! يا مأكول التراب غدًا هل تشك أنك سوف تموت؟! أتظن أنك لن تسأل عن عمرك فيما أفنيته، وعن مالك فيما أنفقته وعن شبابك فيم أبليته، وعن عملك ماذا عملت فيه؟! أفق أيها الغافل، وتفكر قبل فوات الأوان، وتيقظ قبل أن يقال: مات فلان.

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [طه: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

من تفكر في حقيقة الموت والحياة علم أنه ما خلق إلا للعبادة والتزود من الدنيا إلى الآخرة، وأنفق ساعات عمره فيما يفيد ولم يغفل عن ذلك القضاء المحتوم الذي قضاه الله على كل مخلوق.

تزود من الدنيا فإنك لا تدري ... إذا جنَّ ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى يمسى ويصبح لاهيًا ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من عروس زينوها لزوجها ... وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ... وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حينًا من الدهر

فيا أخي، هذه وصية ناصح مشفق فيا أيها العاقل تب إلى ربك إن كنت عاقلًا، وتقرب إليه بما يرضيه إن كان قلبك واعيًا.

أفق من غفلاتك وجهلاتك، واعمل ليوم مماتك، واعلم أن محب الدنيا ومؤثرها على الآخرة هو أشد الناس عذابًا بها، وهو معذب في دوره الثلاث يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها وكونه قد حيل بينه وبين ما يشتهي وفي الآخرة يعذب بما اقترفت يداه، وبما أحدثه وجناه في جنب الله وتأمل قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٨٥].

فافتح عين الفكر على حقيقة دار فانية تزول وتحول واعلم بأن الآخرة خير وأبقى والجزاء فيها أبر وأوفى، ونعيمها مقيم، وزيادة على الجنة النظر إلى وجه الله الكريم.

أي أخي، أشغل عقلك وقلبك بالفكر فيما ينفعك وتدبر فيما حولك يبصر قلبك حقائق كثيرة تكون زادًا ووقودًا يدفع إلى العمل الصالح، ويحث على الاستعداد ليوم المعاد.

تفكـر في يـوم القيامة ومـا يكون فيه، تفكـر في النار وعذاب أهلهـا، تفكر في الجنة ونعيمهـا الكامـل الخالد، تفكر في عظمة الإسـلام وبقائه وضعـف الباطل مهما خدعت بـه الأنظـار، تفكر فـإن الفكر غـذاء القلب بالإيـمان، ونعيم للنفس تخرج به من السـآمة والملالة، وسبيل قويم لمعرفة حقائق الأمور وخفاياها.

❁ ❁ ❁

obeikandl.com